التجليات الدلالية في حكاية "الشيخ وبنيه الثلاثة"

من باب "الأسد والثور"، كتاب "كليلة ودمنة"، لابن المقفع

بلعباس عبد القادر
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

مقدمة:

إنّ باب الأسد والثور، برنامج سردي، تضمن إجابة للفيلسوف "بيدبا"، عن سؤال طرحه عليه الملك "دبشليم"، أرادا من خلاله معرفة مصير متحابين، تدخل بينهما عنصر سلبي مشوش، فأثر على علاقتيهما، ولكي يحقق رغبة الملك، اختار ما جرى للأسد والثور، كفعل حجاجي.

وقصد النجاح في تنفيذ هذا البرنامج، استند الراوي إلى 16 نصا سرديا هي عبارة عن ملحقات (Annexe).

وقع اختيارنا منها، على النص الأول (الشيخ وبنوه الثلاثة). فتبنينا المنظور الافتراضي في استنباط تجلياته الدلالية، واستعنا ببعض المفاهيم، والأسس التي تعتمدها النظرية السيميائية، كالتحويل، موضوع القيمة، التحريك...

كما أننا أشرنا إلى التحولات الدلالية للملفوظات معتمدين مبدأ المحايثة (Immanence). الذي يرجح الداخل في التعامل مع الدلالة عن المعطيات الخارجية.

تحليل العنوان:

إنّ العنوان "الشيخ وبنوه الثلاثة" مقطع واحد، ولكن تشكله ثنائية: الشيخ – بنون، هي في الأول تواصلية، بحيث لا يمكن لأحدهما أن يكون دون الآخر، وتكاملية تفترض أن يكمل كلاهما الآخر. كما أنها ضدّية (Contraire)، باعتبار الامتداد الزمني:

شيخ عكس ابن، وإذا سلمنا بأن كل "سيم" يحيل على نقيضه (Contradiction)، يمكن أن نصوغ الدورة الدلالية التالية: (2)

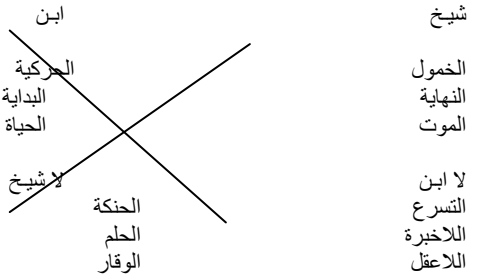

3- تحليل النص:

انطلق الراوي من ملفوظ أوّلي (énoncé élémentaire) أشار من خلاله إلى موضوع القيمة (Objet de valeur) الحبّ، وذكر أنّه إذا تقاسمه متحابان، فاعل (1)، فاعل (2)، ودخل بينهما محتال أي معارض (Opposant) فكلاهما سيعيش حالة افتقار (état de manque)، تتسبب في فقدان التوازن على مستوى الوضع الأولي (état initial)، وينتقلان من وضعية وصلة بالموضوع (conjonctif) إلى وضعية فصلة (disjonctif).

ولكي يؤكد الراوي هذا التحويل، الذي هو فصلي:

[ف ∩ م] ⇐ [ف ∪ م] (3)

جنح إلى برنامج سردي ملحق(4) (programme narratif)،
وأفصح عن (دستا وند) كفضاء كان يقطن به رجل شيخ، وثلاثة بنين."ومن أمثال ذلك أنّه كان بأرض (دستا وند) رجل شيخ وكان له ثلاثة بنين..."(5) .
إن التجليات الدلالية تحيل أنّ الرجل الشيخ (فاعل1)، ما دام هو المتسبب في ظهور البنين (فاعل2)، فإن علاقة فـ2 بـ ف 1 هي علاقة انتماء وخضوع، وأي رفض أو تمرد (عقوق) فإنّه يدخل في الممنوع من المنظور الديني ويمس بالمقدس.
يمكن أن نلحظ هذا الوضع بوضح في مربع / القدرة / الآتي (6):

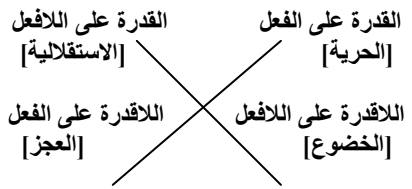

يمكننا هذا المربع من الوقوف على وضعين متباينين في النص.
يتمثل الأول بانصياع الأبناء للأب الشيخ، ذلك أن القدرة على اللافعل وراثية في / الثابت / الذي يستدعي قيودا تلغي حريتهم وتجبرهم على الانقياد. ويتسم الثاني بـ / قدرتهم على اللافعل /، وهو قرار يفترض حرية في تحديد مصيرهم بأنفسهم.
إنّ بلوغ الأبناء (فاعل 2)، وإسرافهم في مال أبيهم (فاعل 1)، عوض الاعتماد على أنفسهم، باحتراف حرفة يكسبون بها خيرا، أحدث أزمة ثقة (crise de confiance)، على مستوى الفضاء العائلي، وجعل الأب يصاب بخيبة أمل (déception)، ويلجأ إلى الفعل الاقتناعي (faire persuasif) لاستمالتهم وإرجاعهم إلى الفعل جادة الصواب.

" يا بني إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور، لن يدركها إلا بأربعة أشياء...." (7) إن الهو المضمّن في ملحوظ الشيخ، يشغل موقع فاعل مفتقر إلى السعادة، التي تشكلها السعة في الرزق، والمنزلة في الناس، والزاد للآخرة.
فهو لا يملكها، ولكن تندرج رغبته في تحقيقها (avoir) ضمن برنامج ملحق (8) (programme annexe) يتمثل في أربعة عناصر:

- اكتساب المال من أحسن وجه يكون.
- حسن القيام على ما اكتسب منه.
- حسن استثماره.
- إنفاقه فيما يرضي الأهل والإخوان (12)

على مستوى النظير الاقتصادي(9) (isotopie économique)، إن لم يظهر " الهو" كفاءة (compétence) في الاكتساب، وحسن التصرف، سينتقل من حالة وصلة بموضوع القيمة "المال" إلى فصلة عنه ويدخل في افتقار (10) (manque).
ويتضح ذلك من خلال الملفوظات التالية:
إن لم يكسب لم يكن له مال يعيش به.
إن كان هو ذا مال واكتساب، ثم لم يحسن القيام عليه أو شك المال أن يفنى ويبقى معدما.
إن هو وضعه ولم يستثمره، لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب.

وإن هو أنفقه في غير وجهه، ووضعه في غير موضعه أو أخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له (11).

إن القيم التي تضمنها هذا المقطع، تعتبر فعلا إقناعيا، سخّره الأب الذي احتل موقع / المرسل /فحرّك الأبناء، وأسسهم / فاعلا منفذا / فعدلوا عن تمرّدهم، وانصاعوا لقوله:

"ثمّ إن بني الشيخ، اتعظوا بقول أبيهم، وأخذوا به، وعلموا أن فيه الخير وعوّلوا عليه." (12).

إن عمل / الفاعل (البنون) / بنصيحة / المرسل (الأب الشيخ) / محكوم بجهتين: / وجوب الفعل / و/ إرادة الفعل/.

فمن جهة / إرادة الفعل / (13) (vouloir faire) تترجمها قابلية الأبناء الانقياد إلى توجيه الأب، الداعي اعتماد النفس في الاكتساب، عوض الاتكال على التركة.

ومن جهة / وجوب الفعل / (devoir faire) تحيلها قوة إلزامية [الوجوب] تكمن في انصياع الابن للأب من المنظور الإنساني والديني.

وإذا انتقلنا إلى الجهات المعيّنة [/ القدرة على الفعل / و/ معرفة الفعل/]، يقدم لنا النص الأبناء ممتلكين ل / القدرة على الفعل / (14) (devoir faire) بوصفهم موضوع جهة (objet model).

لقد فعلت نصيحة الأب فعلتها في الأبناء، فأبدوا رغبة في تنفيذها، هذه الرغبة، هي التي جعلت الابن الأكبر يؤسس نفسه فاعلا في برنامج تحقيق الرزق والسّعة، فانطلق نحو أرض "ميّون" على متن عجلة، يجرّها ثوران" شتربة وبندبة"، فوحل الأول أي شتربة، كما هو في الملفوظ الأتي: "فانطلق أكبرهم نحو أرض، يقال لها "ميّون"، فأتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير، وكان معه عجلة، يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة، فوحل شتربة..." (15).

فدخل الابن مع شتربة في فصلة (disjonction) حين تركه، وأمر أحد رجاله إخراجه من هذه الورطة واللحاق به. ولكن الرجل انتابه الفزع في هذا المكان الموحش، وتبع الابن، وادّعى موت الثور "شتربة"، وأبدى رغبة في الحياة (avoir)، فنجا بنفسه، من حيث لا يدري، بأن من يعتقده سببا في نجاته، قد يكون سببا في وفاته، إذا حان أجله.

تفرز هذه المقابلة الثنائية الضدية الآتية: "حياة عكس موت"

ولتأكيد ذلك لجأ الراوي إلى النص السردي:

" الرجل الهارب من الذئب واللصوص".

إن هذا العنوان يشكله مقطعان: - الرجل الهارب.

- الذئب واللصوص.

يحل المقطع الأول إلى الضعف، والثاني إلى القوة، وهما ثنائيتان: الضعف ≠ القوة.

يطلعنا الراوي في بداية النص، ببرنامج رجل سلك مفازة مخيفة بحيواناتها الضارية، ولكن لم يعبأ بذلك لخبرته، ثم أتبع ذلك ببرنامج مضاد، يكمن في اعتراض ذئب للرجل، ودخول هذا الأخير في حالة افتقار (manque)، حين فزع، وبدأ يبحث عن حماية.

في هذه اللحظة السردية، يلجأ إلى قرية خلف واد، ويحاول عبوره،فيسقط في الماء، وهو لا يحسن السباحة، فيتدخل الفاعل الجماعي (سكان القرية) فيقومون بإنقاذه.

"وكاد أن يغرق، لولا أن بصر به قوم من أهل القرية، فتواقعوا لإخراجه، فأخرجوه..." (16).

ولما شعر بالخطر يلاحقه، استنجد بفضاء آخر أكثر أمانا.

شاهد بيتا مفردا فقال: "أدخل هذا البيت فأستريح فيه..."(17). وهنا يعرض الراوي مجوعة لصوص داخل البيت، نصّبوا أنفسهم فاعلا (1)، وراحوا يمارسون عملية سلب (dépossession) على رجل من التجار الفاعل (2) للحيازة على المال (موضوع القيمة)، فلم يجد الرجل بدّاً من أن يترك البيت إلى وجهة أخرى، ولكن بعد مدة ارتأى الجلوس إلى حائط بعد أن نال منه التعب.

إن سوء تقدير الرجل للحائط، جعله يستند إليه، فيسقط عليه ويرديه قتيلا.

على مستوي البنية العميقة، يتعزّز هذا التأويل بتقويم الرجل السلبي لتركيبة الحائط، وحصانته، وبالتالي أعرض عن الأمان بوصفه جهة، يحتكم إليها الفعل الإنساني كبديل للهلاك.

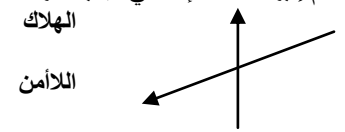

بعد أن علق اللافظ حديثه عن حال الثور " شتربة" حين أوحل وترك، يحدث تواصلا مع الزمن بعد أن خرقه، ويعود مجددا، ليؤكد بأنه أي " شتربة" تخلص من المأزق الذي وقع فيه، واستغل ما كان حوله من الخيرات، فسمن وأمن.

" وأما الثور، فإنه خلص من مكانه، وانبعث، فلم يزل في مرج مخضّب كثير الماء والكلأ، فلا سمن وأمن جعل يخور، ويرفع صوته بالخوار..."

وحتى نفهم الآلية التي يشتغل بها الملفوظ، الخطاطة التالية:

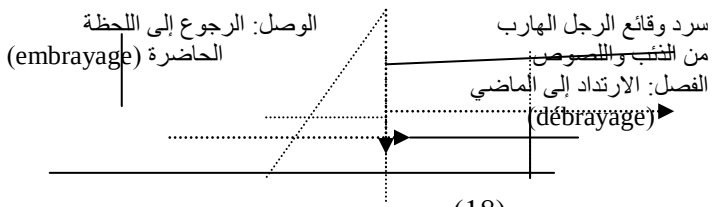

(18)

إن الهزة الصراخية التي أحدثها خوار الثور، أحدثت أزمة ثقة (crise de confiance) لدى الأسد، فتنازل (renonciation) عن القوة والشجاعة التي هي مواصفات لموضوع الرغبة (الملك)، إلى الخوف والخنوع، التي هي مواصفات الثور.

" فلما سمع خوار الثور خامره منه هيبة لأنه لم يكن رأى ثورا قط ولا سمع خواره..."(19). فوقع إذن تحويل، يمكن أن يمثل من المنظور النظمي(syntagmatique) في الرسم الآتي(20):

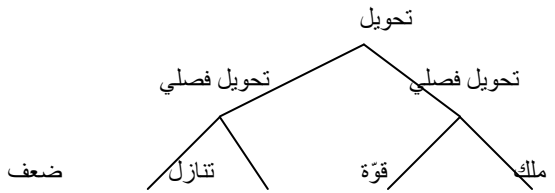

تأكيدا لهذا التحويل يعرض الراوي برنامجا سرديا يؤسس من خلاله "دمنة" نفسه فاعلا، فيحاور "كليلة" عن سبب دنّي نشاط الأسد، فيقوم هذا الأخير بمعارضته (opposition)، ويحجم عن الإجابة لقناعته بعدم تكافؤ المنزلتين، وامتلاكه كفاءة فك السلوك المشفّر للملوك (العامل الجماعي).

" ما شأن الأسد مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشط خلافا لعادته" ؟ (21).

" لسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم..." (22).

الإحـــــــالات

1. جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 25، العدد 3، مارس 1997، ص 97.
2. رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000 ، ص 15.
3. A.j. Greimas, du sens II, op. cit. p 37 groupe d'entre vernes. op. cit. p 25.
4. رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص 62.
5. ابن المقفع، كليلة ودمنة، منشورات دار النفيس، القبة، الجزائر، ص 3.
6. Joseph Courtés, Introductions à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris, 1976
7. ابن المقفع، كليلة ودمنة، منشورات دار النفيس، القبة، الجزائر، ص 3.
8. رشيد من مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر الجزائر، 2000، ص 82.
9. نفس المرجع، ص 86.
10. نفس المرجع، ص 56.
11. ابن المفقع، كليلة ودمنة، منشورات دار النفيس، القبة، الجزائر، ص 3.
12. نفس المرجع، ص 4
13. A.j. Greimas, J. Courtés. Dictionnaire raisonné, op. cit, p 54.
14. A. j. Greimas, « les acquis et les projets », in J Courtés, Introductions à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris, 1976, p 17.